

العتاقة والتجديد

"اخلعوا الإنسان العتيق، والبسوا الجديد"

كلمة "عتيق" غير محبوبة، على العكس لا أجمل من الـ"جديد"!

الإنسان كائن ديناميكيّ، ويعبّر عن مظهر حياته بالحركة. يعبّر عادة عن نجاح الحياة الإنسانيّة بـ"التقدّم" والتطوّر والتحسين. ويرغب الإنسان دائماً أن يبني مستقبلاً أفضل من الماضي، يستخلص من الماضي الأخطاء ليتجنّبها والحسنات ليزيدها، في سبيل المستقبل الأفضل، والتطوّر. إذن، من وجهة النظر الكتابيّة، الإنسان كائن يحمل طاقات خام، ويسعى في الزمن إلى بلورتها وتطويرها؛ وهذا ما نسّميه "الكمال" الذي نرنو إليه. حياة الإنسان "مسيرة" نحو الأمام والأفضل، وبدون هذا التقدم تصير حياته دون معنى. لهذا "الجمود" و"القديم"، بمعنى "غير المتبدّل والمتحسنّ"، غير مقبول. وغداً "سباق التطوّر" سباقاً على تأكيد الذات عند الإنسان أو في المجتمعات أو الدول... كلّ الحركة التاريخيّة بين البشر تدور على طريق هذا السباق.

لكن قراءة سريعة للتاريخ البشريّ عامّة والكنسيّ خاصّة، كما والفرديّ شخصيّاً، توضح لنا، أنّه رغم الحركة الكثيرة والديناميكيّة التي لا تهدأ، لم تكن كلّ مراحل الحركة تطوّرًا بمعنى التحسّن الذي ينشده الإنسان، وبالتالي ليس تقدّمًا في الكمال الإنسانيّ. إنّ التجديد نحو الأفضل، وكما تعلّمنا بولس الرسول هنا، يشترط أمرين. الأمر الأوّل هو خلع الإنسان القديم، و"طرح الكلّ"، أمّا الشرط الثاني فهو أن يتجدّد الإنسان "للمعرفة على صورة خالقه".

يسوع هو "المجدّد" الأكبر في التاريخ البشريّ. حين جاء يسوع واجه في الدّين: الجمود، والناموسيّة حتّى الحرف القاتل، والرياء المفسد للعبادة،... لقد قلب يسوع موائد الصيّافة وطرد باعة الحمام، وهذا تعبير عن قلب، ما هو أعمق، أي إعادة تقويم جسم الدّين المقلوب. "سمعتم أنّه قيل للأقدمين... أمّا أنا فأقول لكم..." كان يردّد يسوع هذه العبارة كثيراً.

لم يتردد يسوع، رغم قساوة قلب بعض سامعيه، عن الإعلان أنّ دعوته ترفض العتيق والجامد. ولا يمكن أن "ترقّع" ثوباً قديماً بقطعةٍ جديدة (متى ٩، ١٦-١٧). كما لا يمكن وضع خمرة جديدة في زقاق عتيق (مر ٢، ٢٢).

نعم إنّ الشرط الأول والأساسيّ للتقدّم هو طرح كلّ "أسباب التخلف- أيّ الإنسان العتيق وأعماله". وذلك بشكل شامل وليس جزئياً. لا يمكن للإنسان أن يتقدّم في الكمال بممارسة بعض الفضائل والألعاب مع الحفاظ على رذائل قديمة. لا يخطو الإنسان بسرعة للأمام وهو يعرج بين الجديد والعتيق. لا يمكن أن نتواضع ونحن ما زلنا حقودين، أو أن نعطي ونحن متكبرون، أو أن نتعفّف ونحن طمّاعون!

بل علينا أن "نطرح الكلّ" ونخلع كلّ أعمال الإنسان العتيق. دون التحرّر من قيود وسلاسل الإنسان العتيق سيتعدّر علينا أن نسلك كإنسان جديد، وإذا ما تحرّكنا سندور في موقعنا ولن نسير إلى الأمام على طريق الكمال. هذا شرط للتقدّم، على المستوى الروحيّ الشخصيّ، والمستوى الخلقيّ الاجتماعيّ، والمستوى السياسيّ، وحتىّ العالميّ أيضاً.

أمّا الشرط الثاني فهو "أن نتجدّد للمعرفة على صورة خالقنا". أن نسير إلى الأمام- إلى الأفضل فهو ما نبتغيه. لذلك في كلّ حركة لا بدّ من أن نحدّد الأمام والخلف ونميّز بينهما. إنّ كلّ محاولة بشريّة عليها أن تنجح في تحديد هدفها وغايتها قبل أن تعظم مقدارها.

خدعة كبيرة، أن تعمل كثيراً ولكن خطأ. لا بدّ للتطور البشريّ أن يضع لذاته قطباً يسعى نحوه ويقيس نجاح مسيرته على معيار اقترابه أكثر من هذا القطب أو العكس. نعم سنخلع الإنسان القديم وأعماله، الشهوة الرديئة والنجاسة والطمع والغضب والكبرياء، وسنلبس الإنسان الجديد! ولكن أيّ إنسان جديد؟

يسوع هو الإنسان الجديد (أف ٢، ١٥). يسوع هو القطب الذي نسير إليه. يسوع هو صورة كمالنا. يسوع هو معيار تقدّمنا أو تخلفنا! ماذا يفيد لو تطوّرت ظروفنا، ومكّنا العالم كلّهُ إذا فقدنا صورة ذاتنا (صورة يسوع)؟ إنّّه تبدّل نعم، لكنّه نحو الأسوأ. ماذا يفيد تطور مجتمعاتنا وبلداننا لو فقدت معه هويّتها وشهادتها وحياتها الإنسانيّة، إن لم نقل المسيحيّة!

لا يخدعنا وجه العالم، ولا تضلّنا حركة فوضويّة! قبل "السرعة" علينا تحديد "الوجهة". كلّ حركة دون معرفة خسارة إن لم تكن إساءة. كلّ "تجديد" للحياة دون "تحديد" للوجهة الصالحة غير مفيد! إنّّه

تخلف وليس تقدماً! "سيروا ما دام لكم النور". فهناك الحث على السير ولكن معه اتباع خطى النور. "أنا هو الطريق والحق والحياة". "فكونوا أبناء النور".

"إن كان أحد في المسيح فهو خلق جديد"، دون المسيح لا تجديد حقيقي. يسوع يحدنا ويدفعنا في الكمال إلى الأمام. من يسير إلى التصور على صورة يسوع- فرداً كان أم مجتمعاً أم أمة أم بلدان- يستطيع أن يقول: "لقد زال كل شيء عتيق، وها هوذا كل شيء جديد- أفضل" (٢ كور ٥، ١٧).

حياة الإنسان مسيرة يدفعها العطش إلى الأفضل. يرغب الناس دائماً في التجديد ويكرهون كل جمود وعتاقة، لأنها ضد الحياة ذاتها. ولطالما ثار الناس على ماضيهم حتى بالعنف أحياناً. الحركة نحو الكمال غاية الحياة البشرية، لكن خبرات الفشل في هذه الحركة تبرهن أن كل تقدم وتجدد يجب أن يعمل بنصيحتي بولس الرسول، أولاً أن نخلع كل أعمال العتاقة بجملتها، وثانياً أن نسعى لارتداء الصورة التي نعرفها صورة خالقنا. حيث الكل يتشبه بالمسيح، في الفرد والمجتمع والدول، وحيث كل إنسان وكل شيء وكل مجتمع يتابع عمل يسوع في التاريخ. أي "حيث المسيح هو الكل وفي الكل"، آمين.